لامية الشنفرى

قال الشنفرى الأزدي (١٣):

1 - أَقِيمُـوا بَنِـي أُمِّـي صُـدُورَ مَطِيِّـكُمْ
فَإِنِّـي إلى قَـوْمٍ سِـوَاكُمْ لَأَمْيَـلُ

2 - فَقَدْ حُمَّتِ الحَاجَاتُ وَاللَّيْـلُ مُقْمِـرٌ
وَشُـدَّتْ لِطِيَّـاتٍ مَطَايَـا وَ أَرْحُلُ

3 - وفي الأَرْضِ مَنْـأَى لِلْكَرِيـمِ عَنِ الأَذَى
وَ فِيهَا لِمَنْ خَافَ القِلَـى مُتَعَـزَّلُ

4 - لَعَمْـرُكَ مَا بِالأَرْضِ ضِيقٌ على امْرِئٍ
سَرَى رَاغِبًـا أَوْ رَاهِبًـا وَهْوَ يَعْقِـلُ

5 - وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُـونَ : سِيْـدٌ عَمَلَّـسٌ
وَأَرْقَطُ زُهْلُـولٌ وَعَرْفَـاءُ جَيْـأَلُ

6 - هُـمُ الأَهْلُ لا مُسْتَودَعُ السِّـرِّ ذَائِـعٌ
لَدَيْهِمْ وَلاَ الجَانِي بِمَا جَرَّ يُخْـذَلُ

7 - وَكُـلُّ أَبِـيٍّ بَاسِـلٌ غَيْـرَ أَنَّنِـي
إِذَا عَرَضَتْ أُولَى الطَّرَائِـدِ أَبْسَـلُ

8 - وَإِنْ مُـدَّتِ الأَيْدِي إلى الزَّادِ لَمْ أَكُـنْ
بِأَعْجَلِهِـمْ إِذْ أَجْشَعُ القَوْمِ أَعْجَلُ

9 - وَمَـا ذَاكَ إِلَّا بَسْطَـةٌ عَـنْ تَفَضُّـلٍ
عَلَيْهِـمْ وَكَانَ الأَفْضَـلَ المُتَفَضِّـلُ

10 - وَإِنِّـي كَفَانِـي فَقْدُ مَنْ لَيْسَ جَازِيًا

بِحُسْنَـــى ولا في قُرْبِـــهِ مُتَعَلَّـــلُ

11 - ثَـــلاثَـــةُ أصْحَـــابٍ : فُـــؤَادٌ مُشَيَّـــعٌ
وأبْيَضُ إصْلِيتٌ وَصَفْـــرَاءُ عَيْطَـــلُ

12 - هَتُـــوفٌ مِنَ المُلْـــسِ المُتُـــونِ يَزِينُـــها
رَصَائِعُ قد نِيطَـــتْ إليها وَمِحْمَـــــلُ

13 - إذا زَلَّ عنها السَّهْـــمُ حَنَّـــتْ كأنَّـــها
مُـــرَزَّأةٌ عَجْلَـــى تَـــرِنُّ وتُعْـــــوِلُ

14 - ولَسْتُ بِمِهْيَافٍ يُعَشِّـــى سَوَامَـــــهُ
مُجَدَّعَةً سُقْبانُها ، وَهْـــيَ بُهَّـــــلُ

15 - وَلا جُبَّـــأٍ أكْهَـــى مُـــرِبٍّ بِعِرْسِـــهِ
يُطَالِعُهَـــــا في شَأْنِـــهِ كَيْفَ تَفْعَـــلُ

16 - وَلاَ خَـــرِقٍ هَيْـــقٍ كَـــأَنَّ فُـــــؤَادَهُ
يَظَـــلُّ به المُكَّـــاءُ يَعْلُـــو وَيَسْفُـــلُ

17 - وَلا خَالِـــــفٍ دَارِيَّـــــةٍ مُتَغَـــــزِّلٍ
يَـــرُوحُ وَيَغْـــدُو داهنًـــا يَتَكَحَّـــلُ

18 - وَلَسْـــتُ بِعَـــلٍّ شَـــرُّهُ دُونَ خَيْـــرِهِ
أَلَفَّ إذا ما رُعْتَـــهُ اهْتَـــاجَ أعْـــزَلُ

19 - وَلَسْـــتُ بِمِحْيَارِ الظَّـــلامِ إذا انْتَحَتْ
هُدَى الهَوْجَلِ العِسِّيفِ يَهْمَاءُ دَوْجَلُ

20 - إذَا الأَمْعَـــزُ الصَّـــوَّانُ لاقَـــى مَنَاسِمِي
تَطَايَـــرَ منـــه قَـــــادِحٌ وَمُفَلَّـــــلُ

21 - أُديـــمُ مِطَـــالَ الجُـــوعِ حتَّـــى أُمِيتَـــهُ
22 -
وأضْرِبُ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْحًا فأُذْهَـــــلُ

23 - وَأَسْتَـــفُّ تُرْبَ الأَرْضِ كَيْلا يُرَى لَـــهُ

عَلَـــيَّ مِنَ الطَّـــوْلِ امْـــرُؤٌ مُتَطَـــوِّلُ

24 - وَلَوْلا اجْتِنَابُ الذَّأْمِ لَمْ يُلْـــفَ مَشْـــرَبٌ
يُعَـــاشُ بِـــــهِ إلاَ لَـــدَيَّ وَمَأْكَـــــلُ

25 - وَلكِنَ نَفْسَـــا حُـــرَّةً لا تُقِيـــمُ بـــي
عَلَـــى الـــذَّامِ إلاَّ رَيْثَمَـــــا أَتَحَـــوَّلُ

26 - وَأَطْوِي عَلَى الخُمْصِ الحَوَايَا كَمَا انْطَوَتْ
خُيُوطَـــةُ مَـــــارِيٍّ تُغَـــارُ وتُفْتَـــلُ

27 - وَأَغْدُو عَلَى القُوتِ الزَّهِيـــدِ كَمَا غَـــدَا
أَزَلُّ تَهَـــــادَاهُ التَّنَائِـــفُ أَطْحَـــــلُ

28 - غَدَا طَاوِيـــاً يُعَـــارِضُ الرِّيـــحَ هَافِيـــاً
يَخُـــوتُ بِأَذْنَابِ الشِّعَابِ وَيَعْسِـــــلُ

29 - فَلَمَّا لَوَاهُ القُـــوتُ مِنْ حَيْـــثُ أَمَّـــهُ
دَعَـــا فَأَجَابَتْـــهُ نَظَائِـــرُ نُحَّـــــلُ

30 - مُهَلَّلَـــةٌ شِيـــبُ الوُجُـــوهِ كَأَنَّـــها
قِـــــدَاحٌ بِكَفَّيْ يَاسِـــرٍ يَتَقَلْقَـــــلُ

31 - أَوِ الخَشْـــرَمُ المَبْعُـــوثُ حَثْحَثَ دَبْـــرَهُ
مَحَابِيـــضُ أَرْسَاهُـــنَّ سَـــامٍ مُعَسِّـــلُ

32 - مُهَرَّتَـــةٌ فُـــوهٌ كَـــأَنَّ شُدُوقَـــها
شُقُـــوقُ عِصِـــيٍّ كَالِحَـــاتٌ وَبُسَّـــلُ

33 - فَضَـــجَّ وَضَجَّـــتْ بِالبَـــرَاحِ كَأَنَّـــهَا
وَإِيَّـــاهُ نُوْحٌ فَوْقَ عَلْيَـــاءَ ثُكَّـــلُ

34 - وَأَغْضَى وَأَغْضَتْ وَاتَّسَى وَاتَّسَتْ بِـــهِ
مَرَامِيـــلُ عَـــزَّاهَا وَعَزَّتْـــهُ مُرْمِـــلُ

35 - شَكَا وَشَكَتْ ثُمَّ ارْعَوَى بَعْدُ وَارْعَوَتْ
وَلِلصَّبْرُ إِنْ لَمْ يَنْفَعِ الشَّكْوُ أَجْمَلُ

36 - وَفَاءَ وَفَاءَتْ بَادِرَاتٍ وَكُلُّهَا
عَلَى نَكَظٍ مِمَّا يُكَاتِمُ مُجْمِلُ

37 - وَتَشْرَبُ أَسْآرِي القَطَا الكُدْرُ بَعْدَمَا
سَرَتْ قَرَباً أَحْشَاؤُهَا تَتَصَلْصَلُ

38 - هَمَمْتُ وَهَمَّتْ وَابْتَدَرْنَا وَأَسْدَلَتْ
وَشَمَّرَ مِنِّي فَارِطٌ مُتَمَهِّلُ

39 - فَوَلَّيْتُ عَنْهَا وَهْيَ تَكْبُو لِعُقْرِهِ
يُبَاشِرُهُ مِنْهَا ذُقُونٌ وَحَوْصَلُ

40 - كَأَنَّ وَغَاهَا حَجْرَتَيْهِ وَحَوْلَهُ
أَضَامِيمُ مِنْ سَفْرِ القَبَائِلِ نُزَّلُ

تَوَافَيْنَ مِنْ شَتَّى إِلَيْهِ فَضَمَّهَا
كَمَا ضَمَّ أَذْوَادَ الأَصَارِيمِ مَنْهَلُ

فَعَبَّتْ غِشَاشاً ثُمَّ مَرَّتْ كَأَنَّهَا
مَعَ الصُّبْحِ رَكْبٌ مِنْ أُحَاظَةَ مُجْفِلُ

وَأَلْفُ وَجْهَ الأَرْضِ عِنْدَ افْتِرَاشِهَا
بِأَهْدَأَ تَنْبِيهِ سَنَاسِنُ قُحَّلُ

وَأَعْدِلُ مَنْحُوضاً كَأَنَّ فُصُوصَهُ
كِعَابٌ دَحَاهَا لاعِبٌ فَهْيَ مُثَّلُ

فَإِنْ تَبْتَئِسْ بِالشَّنْفَرَى أُمُّ قَسْطَلٍ
لَمَا اخْتَبَطَتْ بِالشَّنْفَرَى قَبْلُ أَطْوَلُ

طَرِيدُ جِنَايَاتٍ تَيَاسَرْنَ لَحْمَهُ

عَقِيرَتُـــهُ لأَيِّـــها حُـــــمَّ أَوَّلُ
تَنَـــامُ إذا مَا نَـــامَ يَقْظَـــى عُيُونُـــها
حِثَاثًـــا إلى مُستكْرَهٍ تَتَغَلْغَـــــــلُ
وَإِلْـــفُ هُمُـــومٍ مَـــا تَـــزَالُ تَعُـــودُهُ
عِيَادًا كَحُمَّـــى الرِّبْـــعِ أو هِيَ أَثْقَلُ
إِذَا وَرَدَتْ أَصْدَرْتُـــهَا ثُـــمَّ إِنَّـــها
تَثُـــوبُ فَتَأتِي مِنْ تُحَيْتُ وَمِنْ عَـــلُ
فَإِمَّا تَرَيْنِي يا ابْنَـــةَ الرَّمْـــلِ ضَاحِيًـــا
عَلَى رِقَّـــــةٍ أَحْفَـــى ولا أَتَنَعَّـــلُ
فَإِنِّي لِمَولَى الصَّبْـــرِ أَجْتَـــابُ بَـــزَّهُ
عَلَى مِثْلِ قَلْبِ السَّمْعِ والحَزْمَ أَفْعَلُ
وَأُعْـــدِمُ أَحْيَانًـــا وأَغْنَـــى وَإِنَّمَـــا
يَنَـــالُ الغِنَى ذُو البِعْـــدَةِ المُتَبَـــذِّلُ
فَلا جَـــزِعٌ مِنْ خَلَّـــةٍ مُتَكَشِّـــفٌ
ولا مَـــــرِحٌ تَحْتَ الغِنَى أَتَخَيَّـــــلُ
وَلَا تَزْدَهِي الأَجْهَـــالُ حِلْمِي ولا أُرَى
سَؤُولاً بِأَعْقَـــابِ الأَقَاوِيـــلِ أُنْمِـــلُ
وَلَيْلَةِ نَحْـــسٍ يَصْطَلِي القَوْسَ رَبُّـــها
وَأَقْطُعَـــــهُ اللَّاتِـــي بِـــهَا يَتَنَبَّـــلُ
دَعَسْتُ عَلَى غَطْشٍ وَبَغْشٍ وَصُحْبَتِـــي
سُعَـــارٌ وإِرْزِيـــزٌ وَوَجْـــرٌ وَأَفْكَلُ
فَأَيَّمْـــتُ نِسْوَانًـــا وأَيْتَمْـــتُ إِلْـــدَةً
وَعُـــدْتُ كَمَا أَبْدَأْتُ واللَّيْلُ أَلْيَـــلُ

وأصْبَحَ عَنّي بالغُمَيْصَاءِ جَالِسًا
فَرِيقَانِ: مَسْؤُولٌ وآخَرُ يَسْأَلُ
فَقَالُوا: لَقَدْ هَرَّتْ بِلَيْلٍ كِلَابُنَا
فَقُلْنَا: أَذِئْبٌ عَسَّ أَمْ عَسَّ فُرْعُلُ؟
فَلَمْ تَكُ إِلاَّ نَبْأَةٌ ثُمَّ هَوْمَةٌ
فَقُلْنَا: قَطَاةٌ رِيعَ أَمْ رِيعَ أَجْدَلُ ؟
فَإِنْ يَكُ مِنْ جِنٍّ لأَبْرَحُ طَارِقًا
وَإِنْ يَكُ إِنْسًا مَا كَهَا الإِنْسُ تَفْعَلُ !
وَيَوْمٍ مِنَ الشِّعْرَى يَذُوبُ لُعَابُهُ
أَفَاعِيهِ فِي رَمْضَائِهِ تَتَمَلْمَلُ
نَصَبْتُ لَه وَجْهِي وَلَا كِنَّ دُونَهُ
وَلَا سِتْرَ إِلاَّ الأَتْحَمِيُّ المُرَعْبَلُ
وَضَافٍ إِذَا هَبَّتْ لَهُ الرِّيحُ طَيَّرَتْ
لَبَائِدَ عَنْ أَعْطَافِهِ ما تُرَجَّلُ
بَعِيدٌ بِمَسِّ الدُّهْنِ والفَلْيِ عَهْدُهُ
لَهُ عَبَسٌ عَافٍ مِنَ الغِسْلِ مُحْوَلُ
وَخَرْقٍ كَظَهْرِ التُّرْسِ قَفْرٍ قَطَعْتُهُ
بِعَامِلَتَيْنِ ، ظَهْرُهُ لَيْسَ يُعْمَلُ
فَأَلْحَقْتُ أُولَاهُ بِأُخْرَاهُ مُوفِيًا
عَلَى قُنَّةٍ أُقْعِي مِرَارًا وَأَمْثُلُ
تَرُودُ الأَرَاوِيُّ الصُّحْمُ حَوْلِي كَأَنَّهَا
عَذَارَى عَلَيْهِنَّ المُلَاءُ المُذَيَّلُ
وَيَرْكُدْنَ بِالآصَالِ حَوْلِي كَأَنَّنِي
مِنَ الغُصْمِ أَدْفَى يَنْتَحِي الكِيحَ أَعْقَلُ

الشنفري

الشنفرى الإنسان

هو ثابت بن الأواس [١٤] بكسر الهمزة أو ضمها ، و أغلب الروايات تذكر أنه الشنفرى بن الأواس بن الحِجْر بن الهُنَئ بن الأزد، وأما الأرومة القريبة لآبائه ؛ فهو من أزد شنوءة والشنفرى لغةٌ يُطلق على غليظ الشفة ، وعلى سيىء الخُلق [١٥] ، وهو من شعراء الجيل السابق على الإسلام [١٦] ولا يختلف الرواة في أنه ينتسب إلي قبيلة الأزد ، ولكنهم يختلفو ن في أطوار تنقلها في الجزيرة العربية. ويُنسب الشنفرى إلى الأزد فلُقِّبَ بالشنفرى الأزدي .

وفي قديم التاريخ العربي تبدو قبيلة الأزد متعددة البطون لها باع في أحداث أيام العرب الأولى ، ولم يزل ذكرها بعد الإسلام . ومحلة الأزد اليمن ، ولقد نعموا بالاستقرار في شِعب سَبأ الخصيب باليمن حتى تَهدّم ذلك السَّد ، فاضطُرّوا إلى الانتشار في الجزيرة العربية ، وقد كانت قبيلة الأزد ــ وهم بنو أزد بن الغوث ــ فرعًا من بني سَبأ الذين تفرقوا في أنحاء الجزيرة العربية ، و آثرت الغالبية منهم الاستقرار في الأطراف الشمالية والشرقية من الجزيرة العربية ، وزمن الفتوحات الإسلامية ارتحلوا إلى خراسان وبعض الأقاليم الأخرى .

نشأ الشنفرى في بيئة السراة الجبلية [١٧] ، وُمثل هذه البيئة قد تكسب سكانها حياة الصعلكة وتعوّد الجَلَد ، ولم تحدد الروايات زمن مولده ، ولا مماته ، ومن المرجح أنه كان في فترة سابقة على ظهور الإسلام بزمن قريب .

وصاحب الشنفرى شظف العيش والقسوة منذ النشأة حتى الممات ؛ حيث أُغير على قومه في إحدى الغارات القبلية ، وكان الشنفر ى حينئذٍ طفلاً صغيرًا فأُسِر في بني فهم ، وبعض الروايات تذكر أنه لم يؤخذ أسيرًا ، وإنما انتقلت أمه به إلى بني فهم بعد قتل أبيه على يد أبناء عمومته ؛ وهم بنو سلامان بن مفرج الذين سيثأر الشنفرى منهم فيما بعد ، و أيًّ ما كان السبب فالخلاصة أنه انتقل من بين أهله إلى

حياة الأسر أو الجوار التي تتوجب عليه أن يتقبل من رجالات القبيلة الأخرى صورًا من التعالي ، مع الوضع في حسباننا أن نفسَ الشنفرى شديدة الإباء.

وحتى هذه الحياة المزرية لم تدم للشنفرى في بني فهم ، حيث يُغير بنو سلامان على بني فهم فيأسرون رجلاً منهم ، فيتفاوض بنو فهْم مع بني سلامان على أمر مؤداه أن يقبل بنو سلامان بالشنفرى فِدية عن الأسير الفهمي . وإذن يرحل الشنفرى عن بني فهم بعد أن قضى بينهم فترة سنين تآلف خلالها مع أصدقاء من بني فهم منهم رفيقه في الصعلكة تأبَّط شرًا، ويعيش أسيرًا في بني سلامان ، وما من شك في أن حياة الشنفرى في بني سلامان كانت شديدة القسوة فامتلأت نفسه بُغضًا لهم ، وتشير الروايات إلى علاقة بين الشنفرى وفتاة من بني سلامان ، وهي ابنة للرجل الذي يقيم الشنفرى في جواره ، و حين أراد أن يتزوجها ازدرته ، وتذكر بعض الروايات أن الشنفرى كان يعتقد أنها أخته فطلب منها خدمة ففي بعض أمره فأنِفَتْ من ذلك وصفعته لكونه من الأسراء ، فكان هذا الحادث على مرارته فاصلاً في حياته ليرى معاناته ويسترجع كل ما لاقاه من مرارة وآلام في بني سلامان [١٨] .

وخلاصة الأمر أن الشنفرى لم يحمل لبني سلامان يومًا شيئًا من وُدٍ ، ولئن كان ما عاناه من بني سلامان مؤلمًا لكل نَفْسٍ فوقعه على نَفْسٍ مثل نَفْسِ الشنفرى – ما من شك أنه – لم يكن بالأمر الهين [١٩] ، لا سيّما وأنهم كانوا أقرباء الشنفرى ، والامتهان من اللُّحْمَةِ أشد ألمًا على النَفْسِ مما لو بدر من الغريب [٢٠] ؛ وبذلك تتسبب كل عوامل النقمة في نَفْسِ الشنفرى [٢١] على بني سلامان ، ومن ثَم فقد آلى على نفسه وألزمها أن يقتل منهم مائة نفس .

وإجمالا فقد تأثر الشنفرى بهذه البيئة النفسية فوجد نفسه مهينًا في مجتمع لا تربطه به إلا مشاعر النقمة والبؤس واليباس فهو لا يملك شيئًا [٢٢] ، وحينئذٍ كان الناس جميعًا في نظره مثلاً في السوء ، و جسَّد هذا الاعتقاد سلوكَ ا تخاذه من

الصعلكة إعلانًا للنقمة على مجتمعه الظالم ، وصممٍ على ثأره من بني سلامان ، وهذه الحالة هي التي استهل لاميته بها مُظهرًا تبرمه بالناس ، مصممًا على هجرهم ، مفضلاً الوحوش عليهم .

ومن الحق القول بأنه ليس كل شخص مهما تكاثرت الهموم الاجتماعية أو النفسية عليه يتوجب أن يكون صعلوكًا ، فالصعلكة تتطلب أدوات معينة ينبغي تحققها في ممتهنها ، وقد توفرت هذه المقومات في الشنفرى من تكوينه النفسي أو تكوينه الجسدي أو تأثره البيئي ؛ من حيث الإباء ، وسرعة العدو ، والطبيعة الجبلية وما أكسبته من جَلد ، وإلا لما استطاع بمفرده أن يشكل خطرًا على قبيلة وعلى عامة الناس.

الشنفرى الصعلوك

لا مراء في أن الشعر كان بمثابة مؤسسة إعلام في العصر الجاهلي، ولم يكُ شيء يرفع الفرد و القبيلة أو يخفضهما كما يفعل الشعر ، ومن المعروف أن القبيلة كانت تتلقى التهنئة لظهور شاعر فيها ، وقد ضمَّت فئة الصعاليك عددًا غير قليل من الشعراء الأعلام الذين اصطنعوا لأنفسهم نموذجًا شعريًا متفردًا . وليس من هدفنا ولا مما تسمح فكرة هذا البحث به أن نستعرض خصائص شعر الصعاليك ([٢٣]) ، ولكن نشير إلى بعض الجوانب المميزة لهؤلاء الصعاليك وشعرهم ــ على سبيل التمثيل لا الحصر ــ ، ومنها :

(أ) توفرت على فئة الصعاليك مجموعة من أعلام الشعر المبدعين ، وقد حظيت أشعارهم بإعجاب مجتمعهم ؛ ومنهم الشنفرى ، وعروة بن الورد ، وتأبَّط شرًا ، والسُّليك بن السلكة .

(ب) شعراء الصعاليك لم يتخذوا الشِّعر حرفة للتَّكسب ، وطرقوا موضوعات جديدة غير ما كانت عليه موضوعات الشعر القبلي من المديح والهجاء والفخر والغزل والوصف ...إلخ ، وكذا لم يمتهجوا الأساليب التقليدية في بنية القصيدة من مثل

الافتتاح بالمقدمة الطللية و النسيب، فشاعرنا الشنفرى مثلاً يجمع بين متفرقات ، لكنه يصوغها في نسق يؤلف بين المتنافر منها ؛ فقد تحدث في لاميته عن الوحوش ، وعن الحَر والبرد ، وعن النَّحل والطير، وعن الجوع والفقر، وعن الصبر والألم ، وعن أشياء كثيرة ، لا ارتباط بينها لذاتها لكنه يربطها بشخصه على ما سوف نوضحه في هذا البحث .

وقد كان الشنفرى من هذين الجانبين دعامة أساسية من الدعائم التي ارتكزت الصعلكة عليها في تدعيم كيانها ، وفي حظوتها بتقدير المجتمع الجاهلي و إعجابه ، فمن الجانب الأول كان علمًا من أعلام الشِّعر في تاريخ الأدب العربي ، وقد يختلف النقاد في وضعه في الطبقة الأولى من شعراء العرب ، أو في طبقة تليها ، ولكنهم لا يختلفون قط في أنه من الصفوة الممتازة التي تحتل الصدارة في جودة الشاعرية ، وما من شك أن هذا دعَّم كيان الصعاليك ، ومن الجانب الثاني فقد بدت لامية الشنفرى ذات طراز متميز واستحوذت على ذوق المجتمع العربي وإعجابه ، فكانت أيضًا من عوامل التأصيل لطبيعة حياة الصعاليك وكيانهم .

(ج) احتواء شعر الصعاليك على قدر كبير من الخبرة الحياتية التي بلغت حد الحكمة ومضرب المَثَل ، وتعاورتها الناس بوصفها قِمة مثالية في موضوعها ، فمن قبيل هذه المعاني مما انفرد الشنفرى بجودة التصوير الأدبي فيه ؛ وصفه عِفة المرأة وغضّها من بصرها وحيائها [٢٤]:

كَأَنَّ لَهَا فِي الأَرْضِ نِسْيًا تَقُصُّهُ عَلَى أُمِّهَا، وَإِنْ تَكَلَّمَكَ تَبْلَتِ

وقوله في التعبير عن إباء الذل [٢٥] :

وَفِي الأَرْضِ مَنْأَى لِلكَرِيمِ عَنِ الأَذَى
وَفِيهَا لِمَنْ خَافَ القِلَى مُتَعَزَّلُ

وقوله في الأثرة والتفضل [٢٦]:

وَإِنْ مُدَّتِ الأَيدِي إِلَى الزَّادِ لَمْ أَكُنْ بِأَعْجَلِهِمْ إِذْ أَجْشَعُ القَومِ أَعْجَلُ

ومن الأمثال المشهورة التي أُخذت عن شعر الصعاليك ، الشطر الأخير من قول الأخينس الجهني [٢٧].

تُسَائِلُ عَنِ حُصَيْنٍ كُلَّ رَكْبٍ وَعِنْدَ جُهَيْنَةَ[٢٨] الخَبَرُ اليَقِينُ

(د) سلوكيات الصعاليك : الصعلكة تعني في مفهومها اللصوصية وقطع الطريق ، فقوام أمرها شرّ وفساد ، ولكن المفارقة في أن الصعاليك اتخذوا أسلوبًا لهم في الحياة يقوم على شرائط ؛ على قدر ما فيها من دواعي الغرابة لكنها لا تخلو ــ مع ذلك ــ من أمارات الإعجاب 0[٢٩] ، فالتعاون والمشاركة أساس في حياتهم في ظل مجتمع عار عن هذه الميزة ، ويكفيك ذكرًا علمهم المشهور عروة بن الورد شاهدًا على روح التعاون بين الصعاليك ؛ فقد كان دائم الغارات لكنه لم يميز نفسه في الغنائم على أحد من تابعيه ، بل لم يَرَ بأسًا في إعطاء نصيبه لصعلوك لم يشهد تقسيم الغنيمة ، وزيادة على ذلك كان بيته يُعَدُّ ملجأً دائمًا لُلص ــعاليك ، سواء منهم من عرفه أو من جهله ، وليس من عَجب بعد هذا أن يلقب ب عروة الصعـاليك ، وأن يغدو بمثابة زعيم شعبي [٣٠] ، وقد حظي عروة بن الورد بتقدير المجتمع ين : الجاهلي والإسلامي [٣١] ، فمن المأثور قول معاوية بن أبي سفيان تعبيرًا عن إعجابه بشخصية عروة : لو كان لعروة ولد لأ حببت أن أتزوج إليهم ، وقال عبد الملك بن مروان : ما يسرني أن أحدًا من العرب ولدني إلا عروة بن الورد لقوله :

أُقَسِّمُ جِسْمِيَ فِي جُسُومٍ كَثِيرَةٍ وَأَحْسُو قَرَاحَ المَاءِ وَالمَاءُ بَارِدُ[٣٢]

ولم يختص عروة وحده بهذا الخُلُق ، و إنما كان مثالاً من الكثرة الكاثرة ، وفقدان المجتمع ــ كما أشرنا ــ لهذه الخصيصة مع حاجته الشديدة إليها جعلها يُكْبِرُ فيهم ما يفتقده ، وجرّاء ذلك وُسِم الصعاليك عامة بالسخاء والجود حتى ضُرب المثل بهم ، فمن الأمثال المشهورة في المجتمع العربي " كل صعلوك جواد " [٣٣] ؛ فللجود ــ نظرًا لظروف البيئة ــ يحتل المقدمة في كل صفات الشرف ، وإذ ذاك ندرك ما أكبره المجتمع في هذه الجماعة .

وقد ضَمَّنَ الشعراء الصعاليك كثيرًا من مبادئهم وسلوكهم في أشعارهم ، ولم تنقل الروايات أن أحدًا أنكرها عليهم ؛ من مثل العِفة والجُود والشجاعة ، وخصوصًا في شعر عروة بن الورد ، والشنفرى، وحتى الصعلكة نفسها جعلوا منها منهجًا لهم ، ومنهاجًا يُقْنِعُونَ المجتمع بسلوكه .

الشنفرى الشاعر :

ليس من هدف هذا البحث استعراض شعر الشنفرى أو تقييمه فنيًا ، و إنما المستهدف إبراز صورة عامة عن أبعاد شخصية الشنفرى من واقع لاميته ، وفى إطلالة سريعة على مجمل شعر الشنفرى الذي وصل إلينا ــ حيث فُقد الكثير منه ــ يمكن أن نشير إلى العناصر التالية :

1- مصادر شعره :

ما وصل إلينا من شعر الشنفرى قليل قياسًا إلى ما كان يُنتظر من موهبة مكينة في قدر موهبة الشنفرى ؛ فما وصل إلينا من مجموعة القصائد والمقطوعات في عدادها قليلة يغلب حديث المغامرات عليها ، وربما كان هذا هو السبب في تناقلها ، هذا باستثناء اللامية ، فإنها غير مرتبطة بحدث معين ، ومع ذلك وصلت إلينا كاملة ــ فيما اعتقد ــ وقد جُمعت قصائد الشنفرى ومقطوعاته ضمن مجموعة الطرائف الأدبية . ومن المصادر التي تضمنت شُعره ؛ بعض كتب النقد التي استجادت بعض شعره ومعانيه ، من مثل قول الشنفرى حين همَّ أعداؤه بقتله بعد أن تمكنوا منه :

لا تَقْبُـــروني إنَّ قَبْـري مُحَـــرَّمٌ عَليكُمْ وَلكِنْ أبْشِري أمَّ عَامِر(٣٤)

إذا احْتُمِلتْ رَأسِي وَفِي الرَّأس أكْثَرى وغُودِرَ عِندَ المُلْتَقى ثَمَّ سَائِرِي(٣٥)

هُنَالِـــكَ لا أرْجُـو حَيَـاةً تَسُـرُّنِي سَمِيرَ اللَّيالي مُبْسِلاً بالجَرَائِر (٣٦)

وأيضا كتب النوادر و الأخبار التي وجدت في حياة الشنفرى مادة طيبة من القصص و الأساطير الممتعة حرصت على إثباتها ؛ ومن تلك الكتب كتاب الأغاني

لأبي الفرج الأصفهاني ، وكذا كتب عن ا لأوابد والحيوان ؛ من مثل كتاب الحيوان للجاحظ ، حيث اهتمت مثل هذه الكتب وما على شاكلتها بالسرد عن أنواع الحيوان وطباعه وما إلى ذلك ، وقد أوردت هذه الكتب قدرًا من أشعار الشنفرى نظرًا لطبيعة حياته بوصفه صعلوكًا تحفل بيئته الجبلية بأنواع من الحيوان ، ويمكن إضافة كتب جغرافية من مثل كتاب (معجم البلدان لياقوت الحموي) ، و مثل هذه الكتب يهدف إلى تحديد الأماكن ومعالمها ، وقد حفل شعر الشنفرى بأسماء الأماكن التي ترتحل إليها ــ وهكذا عامة الصعاليك ــ ، وعلى ذلك ورد في هذه الكتب أشعار للشنفرى ، ولا نفقد في بعض معاجم اللغة ــ مثل صحاح الجوهري وقاموس الفيروزأبادي ــ أشعارًا للشنفرى ترد بغية بيان ألفاظ اللغة في مدلولها واستعمال اشتقاقاتها ، وشعر الشنفرى في جملته يبدو فيه وضوح الألفاظ وفصاحتها على أنه في النهاية جزء من الحقبة الجاهلية.

(ب) موضوعات شعر الشنفرى :

شعر الصعاليك عامة ، وشعر الشنفر ى خاصة ، يلتزم موضوعات معينة [٣٧] من أحاديث مغامراتهم وأسلحتهم ورفقتهم والتوعد والفرار وسرعة العَدو والغزوات إلى آخره من قبيل تلكم الموضوعات . والشنفر ى طَرَقَ غالبية الموضوعات التي يعرفها الشعر تقريبًا ولكن من خلال ارتباطها بشخصه ، فهو يمدح مدحًا عميقًا ولكن إن فتشت عن ممدوحه تجده رفيق حياة الصعلكة ؛ مثلها مدح تأبط شرًا مطنبًا في مدحه لأنه رفيقه [٣٨] والمشرف على المئونة خلال غارات الصعلكة ، وهي أمور ضرورية للشنفرى ، وكذا كان الحال في هجائه ؛ فالمهجو هو صريع الشنفرى أو طريده ، و فى الوصف يتفوق الشنفرى في وصف الطبيعة وبيئة الصعاليك ؛ من جبال ومَرَاقب [٣٩] ، ورمال وأمطار ، ومن حَر وبرد ، ومن حيوان الصحراء وطيورها ، وحشراتها وهو امها ، وفي كُلٍّ إنما يصور ما يرتبط بحياته .

لامية الشنفرى /لاميـــــة العـــــرب

سُميت اللامية بهذا الاسم لأن قافيتها اللام ، وعُرفت باسم لامية العرب تمييزًا لها عن غيرها من القصائد . وقد شرحها عدد كثير من الأقدمين [٤٠] .

ولقد أُثيرت أقاويل عديدة حول نسبة اللامية إلى الشنفرى ، والثابت أنها ظلت منسوبة إلى الشنفرى دون أدنى ريبة في نسبتها نحو ما يقرب من أربعة قرون، قرابة قرن منها في فترة العصر الجاهلي ، و ثلاثة منها في العصـــر الإسلامي ، ثم بدت تُرهة بأن صاحب اللامية هو خلف الأحمر ، والذي تناقل هذا الرأي هو أبو علي القالي(ت 356هـــ)عن أستاذه أبي بكـــــر بن دريد (ت 321هـــ) ، وعن رأي القالي في هذه المسألة فقد ذكره في الجزء الأول من كتابه الأمالي [٤١] إلماحًا ، ثم عاد في الجزء الثالث من الكتاب نفسه وذكر نص اللامية كاملاً [٤٢] ، بل نسبها إلى الشنفرى صراحة ، وبدا القالي بترتيبه هذا في العرض أنه قد انتهى من التشكيك أو الشك في نسبتها عند هذا الحد .

وتلك الحالة من التشكيك في نسبة اللامية إلى الشنفرى قديمًا من جانب خلف الأحمر قد نعزوها إلى كونها محاولة من لدن متعصبي الشعوبية للتشكيك في التراث العربي آنذاك ، وما يؤيد هذا المنحى من الاعتقاد هو أن هذا التشكيك لم يصُوب للامية وحدها ، ولم يصُوب إلى الشنفرى وحده ، وإنما صُوب إلى شعراء آخرين كثيرين ، منهم تأبط شرًا صديق الشنفرى ورفيقه.

ومن الأمور التي تسترعى النظر أمر تسمية اللامية بلامية العرب، فللأوائل حتى نهاية القرن الرابع الهجري كانت اللامية تُسمي عندهم لامية الشنفرى ، والثابت أن المرويات لا تحدد لنا توقيتًا بعينه ، ولا حدثًا بذاته بدأ معه تسمية لامية الشنفرى بلامية العرب ، والراجح أن السبب في إطلاق هذه التسمية ربما الرغبة في تميزها عن لامية

العجم الذي أنشأها الحسين بن علي الطغرائي الكاتب سنة 505هـ [٤٣]، وسماها لامية العجم ، والذي يفتتحها قائلاً:

أَصَالَةُ الرَّأي صَانَتْنِي عَنِ الخَطَلِ وَحِلْيَةُ الفَضْلِ زَانَتْنِي لَدَى العَطَلِ [٤٤]

ومن هذا الوقت أصبحت لامية الشنفرى تُعرف بلامية العرب، وظهرت هذه التسمية فيما جاء بعد ذلك من شروح لها ، وأول شرح هو شرح الزمخشري (المتوفى سنة 538هـ) الذي سماه " أعجب العجب في شرح لامية العرب " ، أما قبل ظهور لامية العجم للطغرائي فلم يصف أحد لامية الشنفرى بلامية العرب

والذي يسترعى النظر هنا هو فكرة وضع جنس العرب من خلال قصيدة شعرية إزاء جنس العجم وأيضًا من خلال قصيدة شعرية، والقصيدتان تتحدان في القافية ، وتقتربان إلى حدٍّ بعيد في مسألة حديث القِيم والشِّيم النبيلة في المطلق ، وتوفرها في الشاعر على نحو من الخصوص ، فهل الأمر بعدُ يمكن أن يندرج ضمن توارد الخواطر ، أو حتى تأثر شاعر بشاعر؟!. فلو كانت الأخيرة ، فلماذا لم يطلق على العربية لامية الشنفرى في مقابل أن يطلق على العجمية لامية الطغرائي ؟ ! وهل تنسب القصائد إلي شعب أو عنصر ــ اللهم إذا كان من قبيل الدراسات المقارنة ــ ولكن هكذا في المطلق .. فهذا حقًا مدعاة للتساؤل ؟!!

ذلك التساؤل الذي قد يصل بنا إلى فكرة الشعوبية قديمًا وصراع الحضارات حديثًا ؛ فالعرب يعتدُّون بلَدابهم ، وضِمْن أثمن روائعها الخالدات لامية الشنفرى ، وهى في الوقت ذاته قلَّدها أو تأثرها الطغرائي ، والأعاجم سواء تعمدوا إنشاء قصيدة على منوال اللامية العربية شكلاً ومضمونًا ، أو وجدوا شاعرًا منهم قد قال قصيدة لامية عفوًا ــ مع تشابه يكاد يصل إلى حد التطابق بين الاثنتين مما قد ينفى العفوية فإنهم في كلا الحالتين سينافسون العرب بها ما داموا وقعوا في نير الشعوبية والعَصبية والعِرقية .

من أقوال القدماء والمحدثين في نقد اللامية :

ونشير إلى بعض النماذج التي لا يُراد منها الاستقصاء قدر التمثيل لآراء بعض أئمة النقد والعلم في مختلف العصور في لامية العرب ، من حيث هي قصيدة ، أو من حيث تضمنها معانٍ لافتة في تفوقها وامتيازها، ويمكن عرض هذه الأمثلة في إيجاز على النحو التالي :

1- يشيد أبو علي القالي (المتوفى 356هـ) باللامية فيصفها بأنها قصيدة من المقدمات في الحسن والفصاحة والطول [٤٥] .

2 ــ يقول أبو العلاء المعري (المتوفَّي 449 هـ) في رسالة الغفران[٤٦] ما مؤداه أن بعض الحِكم التي تضمنتها لامية الشنفرى سرمدية التأثير .

3- يتوقف أبو هلال العسكري (المتوفَّي سنة 395 هـ)عند تميز اللامية على مستوى اللفظ والمعنى ؛ فيقول : ومما هو فصيح في لفظه جيد في وصفه ؛ قول الشنفرى [٤٧]:

أُطيلُ مِطَالَ الجُوعِ حَتَّي أُمِيتَهُ وَأَضْرِبُ عَنهُ الذِّكْرَ صَفْحًا فأُذْهَلُ

4- يشير ياقوت الحموي (المتوفي سنة 626هـ) إلى ما مفاده بلاغة الشنفرى وتفوقه في معنى الفضل [٤٨]، وكان يعني بيت الشنفرى الذي يقول فيه:

وأَسْتَفُّ تُرْبَ الأَرْضِ كَيْ لا يَرَى لَهُ عَلَيَّ مِنَ الطَّوْلِ امرُؤٌ مُتَطَوِّلُ

وفي العصر الحديث كان للمستشرقين اهتمام باللامية و قيمتها ، فيوى كارل بروكلمان أنها درَّة ثمينة في جودتها وتفوقها بمزايا عديدة ، وقد تُرجمت إلى عدد من اللغات . وجُل المستشرقين نهج مسلك القدماء فيما هو معروف من نسبة لامية العرب لشاعرها الشنفرى ، بل يكاد يُجمع المستشرقون على ذلك غير واحد منهم هو كرنكو الذي آثر نسبة هذه اللامية لخلف الأحمر وليس للشنفرى [٤٩] ، ومما يدعو إلى تقدير المستشرقين أنهم لم يسايروا كرنكو فيما ذهب إليه وانتقدوه ؛ فيأبى كارل بروكلمان على كرنكو نفيه نسبة اللامية إلى الشنفرى مشيرًا إلى أن سَمْتَ المنهج في اللامية

يخالف منهج خلف الأحمر في أشعاره بينما هي تقترب من الشنفرى وأحداث حياته ، وكذلك يدعم بروكلمان رأيه هذا بالنقل عن مستشرق آخر وهو جورج ياكوب [٥٠] ، وهو من المعجبين بلامية الشنفرى ، والمدافعين عن نسبتها إليه ، كما أكد ياكوب في تقديمه للامية حين ترجمها أنها تترجم لحياة صاحبها الشنفرى الصعلوك ، وينضم المستشرق كارلو نالينو إليهما في الإعجاب باللامية ومعرفة مكانها من التراث العربي ومكانة شاعرها الشنفرى ؛ حيث قال :

"أما الشنفرى الأزدي فصاحب اللامية المشهورة التي يفتخر فيها بانفراده عن قومه ووَحشة عيشه في البراري كأنه لم يعاشر إلا السباع ، وهي قصيدة غاية في الجمال تنطق بلسان حال الشاعر" [٥١] ، ويشير نالينو إلى أنه إذا نسبنا اللامية إلى خلف الأحمر فنحن نهدم اللامية و نختلق أدبًا زائفًا بعيدًا عن حياة الصعاليك وعن الشنفرى .

و يضع كارل بروكلمان يده على أمارة موضوعية ؛ حيث يقول : "ولكن القصائد التي وضعها خلف الأحمر تحتفظ دائمًا بعمود الشعر القديم وطابعه ، أما في لامية الشنفرى فيواجهنا مذهب شعري مستقل" [٥٢] أما منهج خلف ــ حتى فيما نَحلَه من أشعار ــ فهو الطابع التقليدي للشعر الجاهلي ، كما يقول : " ... وإذًا فليس هناك ما يحملنا على موافقة ...الذين افترضوا لهذه القصيدة اللامعة بين قصائد الشعر الجاهلي شاعرًا آخر غير الشنفرى ." [٥٣] .

وبناءً على ما سبق فالأوفق أن اللامية من إبداع الشنفرى ، وما عدا ذلك لا يعدو أن يكون ضربًا من التشكيك المفتعل ، وبعض الباحثين المعاصرين من العرب تبعوا أدلة التشكيك [٥٤] التي ساقها بعض المستشرقين ، وكان الأجدر بهم أن يتبعوا رأي الأغلبية من المستشرقين المؤيدين لثبوت اللامية للشنفرى وهم الغالبية العظمى .

إن اللامية تكاد تقتصر على تصوير حياة الشنفرى الصعلوك وحياة أقرانه من الصعاليك ومجتمعهم ، والمُطالِع يعرف ذلك ويقره ؛ لأنه واضح وواقع ملموس مُشاهد ، والشنفرى شاعر صعلوك يصح أن يوصف بالصدق الأدبي أو الفني ؛ فهو يصور حياة حقيقية يعايشها ويعانيها ، أما إذا نسبناها إلى خلف الأحمر نجعلها من قبيل الأدب الزائف لأنه لا وجه للموازنة بين حياة خلف وحياة الصعاليك .

ومن المعاصرين المُشككين في نسبة اللامية للشنفرى الأستاذ الدكتور يوسف خُليف في كتابه " الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي "[٥٥] ، فللامية من وجهة نظره ليست من صنع الشنفرى ، وفي الوقت نفسه تحاشى أن يذكر الأدلة والآراء التي تنسبها للشنفرى.

وحتى هو نفسه لم يثبت على رأ ي أو على الأقل لم يوحد نظرته إلى اللامية إما قبولاً وإما رفضًا ؛فبدا متناقضًا في رأيه بشأنها؛ فمن النصوص التي يتكشف من خلالها رفضه ضمنًا نسبة اللامية للشنفرى قوله :

(ومعنى هذا أن القدماء لم يتفقوا على نسبتها إلى أحد من الشعراء الصعاليك ، وإنما كان اختلافهم في هذا اختلافًا عريضًا ، وأنهم يقفون منها موقف المتشكك في صحة نسبتها إلى أي من الشعراء الصعاليك ، بل إن بعض من يعتد برأيهم يصرحون في قوة بأنها لخلف .)

(... فإذا أضفنا إلى هذا أن أبا الفرج قد أغفل هذه اللامية في ترجمته للشنفرى إغفالا تامًا ولم يشر إليها على كثرة ما روى من شعره .....وأن لسان العرب ــ على كثرة ما نقل من شعر الصعاليك ــ لم يرد فيه أي ذكر لها ولا أي بيت منها ، بدأت كفة الشك في صحة نسبتها إلى الشنفرى ترجح .

هذا من الناحية التاريخية ، أما من الناحية الفنية فإن أول ما يلفت نظرنا أن هذه اللامية طويلة طولا ليس مألوفًا في شعر الصعاليك ...، فإذا أضفنا إلى هذا ما لاحظه كرنكو من قلة أسماء المواضع والأشخاص فيها ،وهي ظاهرة ليست طبيعية

في قصائد الشعر العربي المبكرة ، زادت كفة الشك في صحة نسبة هذه اللامية إلى الشنفرى في الرجحان .

وقد نتساءل بعد هذا : ما السِّر في تلك العناية الغريبة التي لقيتها هذه اللامية حتى تُؤلَّف فيها تلك الشروح الكثيرة المتعددة ، وحتى يحرص الغربيون على ترجمتها إلى لغاتهم ؟ الذي يبدو لي أن سر إقبال الشُرَّاح العرب عليها هو أنهم وجدوا فيها مادة لغوية طيبة ...أما الغربيون فقد وجدوا فيها صورة متقنة لحياة الأعراب في الجزيرة العربية ، فكان اهتمامهم بها لغرض اجتماعي، كما كان اهتمام العرب بها لغرض لغوى.)

ولم يكتف الأستاذ الدكتور خُليف بهذا الرأي من رفض نسبة اللامية للشنفرى ، بل إنه لا يترك الفقرة ذاتها قبل أن يقرر نسبتها لخلف ؛ حيث يقول: (والحق يقال إن خلفًا قد صور حياة صعاليك العرب في هذه اللامية تصويرًا رائعًا ممتازًا ..إلخ) (٥٦)

وهذا الموقف من الدكتور خليف كان يقتضيه ألاَّ يوظِّف أبيات اللامية لخدمة موضوعات مؤلَّفه طالما أنه رفضها ، وشكك في نسبتها للشنفرى وفئته من الصعاليك وبالتالي في نسبتها للزمن الجاهلي بل إمعانًا من الدكتور خليف في رفضه نسبة اللامية للشنفرى فقد نسبها لخلف ؛ ومن ثم فهو إذا ما استشهد بأبيات منها ليخلص إلى أحكام أو نتائج تخص شعر الصعاليك موضوع مؤلَّفه فلن تصدق هذه الأحكام أو تُقبل فيما يخص الشعراء أو العصر أو الفئة ؛ إذ أن المقدمات الفاسدة ــ بلغة المناطقة ــ تؤدى إلى نتائج مثلها ، وهذا ما يقره د. خليف نفسه في مؤلَّفه في موطن آخر في مقام حديثه عن الخبرة العملية في أشعار الصعاليك ؛ حيث يقول :

(ومن الطريف أن الجاحظ عند حديثه عن الضباع وولعها بنبش القبور و" فرط طلبها للحوم الناس " يستشهد بأبيات الشنفرى (٥٧) التي يبشر فيها الضبع بجسده بعد

مقتله ولكنه ينسبها لتأبَّط شرًا ، وهو اختلاف لا يُضير قضيتنا شيئًا فكلا الشاعرين صعلوك .)[٥٨]

فالشاهد هنا قولة الدكتور خليف : " كلا الشاعرين صعلوك " ؛ فحديثه عن الخبرة العملية للصعاليك يدلل عليه بشعر للصعاليك فهذه نقطة هو أكيد منها ، ولكنه يتشكك في نسبة الأبيات لأي من الشاعرين ؛ فاستنادًا لشعر الصعاليك فالحكم بوجود الظاهرة " الخبرة العملية " في الفئة "الصعاليك " قائم على دليل من شعر الصعاليك ، وهذا ما أتفق فيه مع الأستاذ الجليل الدكتور خليف . ؛ حيث إنه لا ضير في النسبة لشاعر بعينه طالما أن الشاعرين من الصعاليك ، وبالتالي لا ضير فيما يترتب على الأشعار من أحكام .

ولكن ما لا أتفق معه فيه ، هو أنه بعد أن أقر بالأمر السالف ــ وهو في مقام نفى نسبة اللامية إلى الشنفرى نسبها صراحة لخلف ، و أطرى على مُكنة الأخير من أسلوب الصعاليك وخصائصهم ــ **تَابَعَ درسَ سمات شعر الصعاليك وحياتهم ، ودللَ على آرائه بأبيات من اللامية ، ومما يزيد الأمر أنه يتراجع عن سابق رأيه في اللامية وينسبها للشنفرى في ذات الوقت الذي أقر فيه بنسبتها لخلف الأحمر ، و علاوة على ذلك واتفاقًا مع أن المقدمات الصحيحة ت وْدى إلى نتائج صحيحة والعكس صحيح ؛ فكيف باللامية المنسوبـة لخلـف في العصر الإسـلامي تؤطر لسمت " الشعـــراء الصعـــاليك في العصر الجاهلي" ؟! [٥٩] فهذا ما صنع د. خليف ؛ حيث قال حين التمثيل لشعر الغارات للصعاليك :**

(**وفى لامية العرب** قصة غارة مفاجئة خاطفة **قام بها الصعلوك** في ليلة باردة ذات ظلام ومطر ، وقد استبد به الجوع والبرد و...

وَلَيْلَةِ نَحْسٍ يَصْطَلِي القَوْسَ رَبُّهَا وَأَقْطَعُهُ اللاَّتِي بِهَا يَتَنَبَّلُ

ثم يستطرد في ذكر سبعة من أبيات اللامية تمثل لشعر الغارات لدى الصعاليك[٦٠]

والأمر نفسه تبناه الأستاذ الدكتور شوقي ضيف في كتابه تاريخ الأدب العربي ؛ في العصر الجاهلي ، فأكَّد تأكيدًا جازمًا أن اللامية منحولة على الشنفرى ، وأنها على وجه غير مشكوك فيه عنده من وضع خلف الأحمر ، وهو بهذه القناعة يدحض كل الروايات التاريخية وآراء النقاد و شروح العلماء التي شرحت اللامية ونسبتها إلى الشنفرى دون أن يشير إلى شئ منها سوى أن الشنفرى اشتهرت له لامية العرب ، ولكنه يستدرك فيقول "وهي مما نحل عليه ، فقد نص الرواة على أنها من صنع خلف الأحمر" [٦١] ، وهذا استشهاد مقتطع عن سياقه ؛ حيث أورد ما قاله القالي في الجزء الأول من الآمالي ، ولم يشر إلى ما قاله في الجزء الثالث من الكتاب نفسه ، وهو بعد لا يركن لأسباب تاريخية قوية أو حتى أسباب فنية [٦٢] .

إن هذه اللامية في حد ذاتها ضرب من ضروب الإبداع الشفوية [٦٣] في العصر الجاهلي حيث لم يدون بالكتابة ، وإنما دُوِّن في الذاكرة الإنسانية ــ ليدون بعد ذلك مع الإقرار أنه عبر الانتقال حُرِّف وضاع ونحل بعضه ؛ فالنص الشعري الذي نتعامل معه مهما قوي رأي على آخر في هذا الشأن فإن أحدهما لا يدحض الآخر ــ إلا أن كل ذلك لا يحملنا على التشكيك في هذا التراث الشعري الذي يعد الدعامة الجوهرية التي حافظت على خصائص أدبنا العربي ولغته منذ ما يزيد عن أربعة عشر قرنًا [٦٤] من الزمن ليصل إلينا ، وتوافقًا مع هذا الطرح فنحن في حالة إطلالة على نافذة مهمة من تراثنا الشعري العربي على وجه الخصوص ، وعلى التراث الإنساني على وجه العموم .

ومناط القول في هذا المقام أن التشكيك في تراثنا الإبداعي لهذه الفترة أيسر من الإثبات ، والأدلة في الحالتين قبولاً ورفضًا تبدو ازدواجية الأبعاد أحيانًا ، فما وسع الأوائل القدماء أن يسكتوا عنه ويقبلوه لا بد أن يسعنا أيضًا طالما كان على صعيد تراثنا العربي .

وأخيرًا كان يتعين علىَّ في المقام الأول – فيما أرى – أن أوضح – على الأقل – درجة قناعتي باللامية من حيث صحة نسبتها للشنفرى من واقع الدلائل والأدلة ؛ فتلك ركيزة أولى ، وعن الركيزة الثانية التي آثرتُ أن أُلمِّحُ إليها أيضًا ؛ سِمة القصصية لا سيَّما الجانب الذاتي فيها (٦٥)

سمت السيرة الذاتية في شعر الصعاليك

يتميز شعر الصعاليك بأنه يحتوى على طابع القصصية ؛ والأقرب للأمر سمت (السيرة الذاتية) ، وهذه خصيصة يلمسها المُطالع لشعر الصعاليك ، ونتأتى من أن الصعلوك يجعل من ذاته مركزًا لكل موضوعاته التي يتحدث فيها ، بمعنى أنه لا يتطرق إلى شيء أو شخص إلا بالقدر الذي يعنيه من حيث ارتباطه بهذا الشيء أو الشخص.